سلسلة المحاضرات واللقاءات العلمية لفضيلة الشيخ (٤٢)

حسن الظن بالله



لفضيلة الشيخ الدكتور
عبد السلام بن محمد الشويعر



الشيخ لم يراجع التفريغ





00966558883286

YouTube/alshuwayer9

alshuwayer9

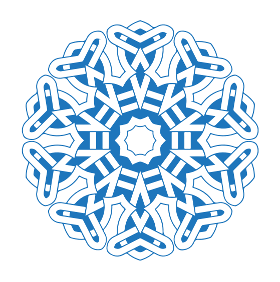
للإعلام بالأخطاء الطِّباعية والاستدراكات والاقتراحات؛ يرجى المراسلة على البريد التالي:

tafreeghalshuwayer@gmail.com

سلسلة المحاضرات واللقاءات العلمية لفضيلة الشيخ



حسن الظن بالله



لفضيلة الشيخ الدكتور
عبد السلام بن محمد الشويعر

النسخة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمد الشاكرين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كثيراً إلى يوم الدين.

ثُمَّ أمَّا بعدُ:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

-أيها الإخوة الأفاضل-، في هذه الليلة - بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ - سيكون حديثنا عن موضوعٍ مُهِمٍّ مذكورٍ في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في أكثر من موضع، وأشار إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجمع أهل العلم كلام الله وكلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكلام سلف هذه الأمة فيما يتعلق به، وما هذا إلا لأهميته وحُسْن المذاكرة به، ولزوم أن يُذكِّر المسلم أخاه إليه وينبهه إلى مراعاته والاهتمام به.

-أيها الإخوة الأكارم-، حديثنا في هذه الليلة - بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ- حديث عن «**حُسْنُ الظَّنِ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ**».

ما رُزِق العبد أمراً في الدنيا هو أعظم من أن يكون قلبه مليئًا بالله عَزَّوَجَلَّ إيمانًا ومحبة وحُسْن ظنٍّ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إذا حُسْن الظن به سبحانه من الإيمان به، وهو من أفعال القلوب التي تكون تابعة للإيمان.

ولذا فإن من مُلِئ قلبه إيمانًا وحُسْن ظنٍّ بربه جَلَّ وَعَلَا فإنه السعيد، وما مُلِئ قلب امرئٍ إيمانًا إلا ولازمه حُسْن الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وإذا رزق الله عبداً من عباده هذين الأمرين المتلازمين: الإيمان به وحُسْن الظن

به جَلَّ وَعَلَا؛ فإنها النعمة التي لا يدانيها نعمة، كيف لا وهي التي لا يؤتاها إلا مؤمن.

جاء أن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **كان يقول**: «والله الذي لا إله غيره، ما أُعطي عبدٌ مؤمنٌ شيئًا خيراً من حُسْن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، والذي لا إله غيره، لا يُحسن عبدٌ بالله عَزَّوَجَلَّ الظنَّ إلا أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ ظنَّه، ذلك بأن الخير في يده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ».

حُسْن الظن - أيها الإخوة الأكارم - هو علامة الإيمان، وهي فَيْصَلٌ يستطيع أن يفرِّق به المرء الإيمان من عدمه، ويقيس به كمال الإيمان من ضعفه.

وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ عن الكُمَّل إيمانًا وذكر خبرهم ووصفهم بهذا الوصف العظيم، كما قال جَلَّ وَعَلَا: **﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾** [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

فهؤلاء الأقوام الكُمَّل في إيمانهم لمَّا كمل حُسْن ظنِّهم بالله عَزَّوَجَلَّ زادهم إيمانًا، **﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾**.

فمن نِعَمِ الله عَزَّوَجَلَّ: الإيمان وحُسن الظنِّ به، وضدُّ ذلك بضده، فإن من علامة الشك والنفاق والرياء أن يكون المرء مسيئًا الظن بربه وغير محسن به الظنَّ جَلَّ وَعَلَا، وقد وصف الله أراذل القوم - وهم المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات - بهذا الأمر أنهم مسيئون الظن به سبحانه، **﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ**

مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦].

نَعَم، إن اقتران هذا الوصف بهذا الاسم يدل على أن هذا الوصف من ألزم وأظهر صفاتهم، فإن اسم المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات قُرِن به وصْف سوء ظنهم بربهم جَلَّ وَعَلَا، فدل ذلك على أن هذا الوصف من أعظم ما يستحقون عليه العقوبة، وهو الذي لأجله جاءتهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً.

وقد بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أن سبب سوء الظن به سبحانه إنما هو الشيطان، ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

وبين هؤلاء القوم وأولئك، بين الكُمَّل من الناس والذين هم في أسفل جهنم من المنافقين والمشركين درجات، فإن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بمعرفة الله وينقص بضعفها، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

ومما يزيد به الإيمان ويكمل: حُسْن الظن به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فليس كل المؤمنين ظنُّهم بالله واحد، بل إن بعضهم لربما طرأ عليه من ضعف الإيمان ما يكون سبباً لضعف كمال حُسْن ظنِّه بالله عَزَّوَجَلَّ.

وأنت إذا تأملت - أيها الموفَّق - ما جاء عن ربنا جَلَّ وَعَلَا وفي سنة نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لوجدت التأكيد على هذا الأصل الأصيل وهو حُسْن الظن به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين بأن يحسنوا الظن به سبحانه، يقول ربنا جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، **قال سفيان**: «أي: أحسنوا الظن بالله».

إذا أحسنت الظن بالله فأنت المُحسن، فالله يحبُّك، وإذا أسأت الظن به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإن الله عَزَّوَجَلَّ ينفي عنك هذه الصفة، ولا يسيء الظن بالله إلا المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات كما بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ، وإن كان بعض المؤمنين قد تأتي له بعض لحظات يضعف فيها إيمانه ويسوء ظنُّه بما يقدِّره الله عَزَّوَجَلَّ عليه بربِّه، فحينئذٍ وجب عليه أن يراجع نفسه، وأن يفتش في قلبه، وأن يعتني بالسبب الذي يؤدي لتقوية إيمانه.

وقد جاء في الحديث القدسي: أن نبينا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**قال الله عَزَّوَجَلَّ: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن عبدي بي ما شاء**»، وهذا يدلُّنا على أن من أحسن الظن بالله فإن الله لا يخيب رجاءه، ولن يرد له ما ظنَّه به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خسارةً، وإنما الله عَزَّوَجَلَّ سيعطيه ما ظنَّه، ولكن لابد من الابتلاء والامتحان ليميز الله عَزَّوَجَلَّ الصادق من غيره، ويبتلي الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين، ولكي يُعرف حُسْن الظن الحقيقي من غيره الذي هو مجرد أملٍ ودعوى، «**أنا عند ظن عبدي بي، فليظن عبدي بي ما شاء**».

وكذلك الله عَزَّوَجَلَّ توعَّد الذين أساءوا الظن به، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿**وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ [الفتح:٦].

❐ **فرتَّب الله على الظانين بالله ظنَّ السوء خمس عقوبات شديدة:**

- دائرة السوء.
- وغضب الله.
- ولعنته.

- وجهنم التي أعدها لهم.

- وسوء المصير.

لذا قال ابن القيم: «لم يتوعد الله أحداً بالعقاب أعظم ممن ظن به ظنَّ السوء».

فإذا كان الأمر كذلك فلا غرْو بَعْدُ أن يكون دعاء المتقين والمخبتين العارفين بالله وبكتابه وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن يكون من دعائهم الملازم لهم: الدعاء بأن يرزقهم الله حُسْن الظنِّ به جَلَّ وَعَلَا.

جاء عن الأوزاعي أبي عمرو أنه قال: «كان من دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللهم إني أسألك التوفيق لمحابِّك من الأعمال، وصدق التوكل عليك، وحُسْن الظن بك».

وهذا الدعاء - الذي رُوي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جاء أنه كان يدعو به جماعة من السلف، كسعيد بن جبير من أئمة التابعين وغيرهم من أهل العلم، وهو دعاءٌ عظيم جليل فيه معانٍ عظيمة، وفيه ذِكْرٌ وطلبٌ لأمور متلازمة، (اللهم إني أسألك التوفيق لمحابِّك من الأعمال، وصدق التوكل عليك، وحُسْن الظن بك».

فما أحسن أحدٌ الظن بالله إلا وكان توكله عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صادقًا، إذ بين هذين الأمرين من التلازم ما لا شك فيه ولا ريب.

وكذلك أيضًا بينهما وبين العمل الصالح تلازم، فإن من يدَّعي حسن الظن به سبحانه وصدق التوكل عليه جَلَّ وَعَلَا؛ لابد أن يكون ذلك معه حُسْن عمل وتصديقٌ بالوحي، وتصديق الوحي هو الذي يأمر فيه بحسن العمل.

وإذا عرفنا - أيها الأفاضل - هذا الفضل العظيم لحُسْن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ وما رتَّب الله

من العقوبة على مخالف ذلك - وهو مسيء الظن به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - فإن من المهم أن نعرف أحوال حسن الظن به سبحانه لكي يعرف المؤمن هل هو مُحسن الظن أم لا، أم أنه ناقصٌ في هذا الباب، ومن جهة أخرى يعلم آثار حُسن الظن به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهي كثيرة.

۞ **لكن من أهم هذه الأمور:** أن المرء إذا ظنَّ بالله عَزَّوَجَلَّ خيراً فإن من أجلِّ أحواله أن يظن به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: إجابة الدعاء، فإن مُحسن الظن بالله يُحسن الظن به سبحانه في الإجابة، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]، ويقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**»، وهذا يدلُّنا على أن حُسْن الظن بالله سببٌ لإجابة الدعاء، فمن ظن بالله خيراً في إجابة دعائه حقق الله له رجاءه، وأعطاه سؤله، وكفاه ما أهمَّه، وأعاذه مما أغمَّه، وما ذاك إلا بسبب إيقانه بالإجابة وحسن ظنِّه بربه، فيغفر الله له ذنبه إذا استغفر، ويقبل منه توبته إذا تاب وأناب، ويُجيب دعوته إذا دعا، ويكفيه حاجته إذا رجا.

۞ **من صور حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ وأحواله:** الظن به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خيراً بالتجاوز عن الخطيئة وغفران الزلَّة وسَتْر العيب وعدم الفضيحة على الخلائق يوم الدين، ولذلك كان من أعظم الناس في حُسْن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ أنبياءُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -وصلوات الله وسلامه عليهم-، وقد قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء:٨٢]، فانظر كيف أن نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أحسن الظن به سبحانه بأن يغفر ذنبه وخطيئته، وأن يتجاوز عن ما صدر منه من زلل. نسأل الله عَزَّوَجَلَّ الإعانة والسلامة.

وإذا كان السلف - رضوان الله عليهم - يُراعون هذا الجانب - وهو حسن الظن بالله

عَزَّوَجَلَّ - فها هو الإمام سفيان بن سعيد الثوري يقول: «ما أُحب أن حسابي جُعِل إلى والديَّ، فربي خيرٌ لي من والديَّ»، فهو قد أحسن الظن به سبحانه بالتجاوز عن خطيئته وسَتْر ذنبه ومغفرة حوبته.

إن بعض الناس لمَّا يسمع هذا الكلام قد يفهم فهمًا خاطئًا، ويظن أنه محسنٌ الظن بالله ولكنه قد استزلَّه الشيطان حينما يستمر على معصيته ويواظب على خطيئته وذنبه، ويتحجج بعدم توبته بحسن ظنِّه بتكفير السيئات، وهذا من جهله بالله وجهله على نفسه، حتى لقد قال بعض الحمقى:

فكثِّر ما استطعت من المعاصي إذا كان القدوم على كريم

وما ذاك إلا بسبب الجهل، ولذا فإن السلف بيَّنوا أن محسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ في مغفرة الذنوب هو الذي يخاف الله، وهو الذي يبادر بالتوبة، وهو الذي يعمل العمل الصالح، كما جاء عن بعض السلف وهو أبو سليمان الداراني أنه قال: «من حَسُن ظنه بالله عَزَّوَجَلَّ ثم لا يخاف الله فهو مخدوع»، وهذا حقيقة، كم نجلس ونعرف ونسمع ونقرأ أقوامًا يدَّعون حُبَّ الله وحُسْن الظنِّ به، وإذا نظرت إلى أعمالهم وجدتها تكذِّب أقوالهم.

يقول أبو سليمان: «من حَسُن ظنُّه بالله عَزَّوَجَلَّ ثم لم يخف الله فهو مخادع»، يخادع نفسه ويكذب على من بجانبه.

۞ **الأمر الثالث الذي هو من علامات حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ:** أن المرء تجده يؤمن بأسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته ويتأمل معانيها، «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، من أحصاها دخل الجنة**»، وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ذلك في كتابه - **أي:** علاقة حُسْن الظن بأسمائه وصفاته - فقال

سبحانه: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٣]، فإن أولئك القوم لما ظنُّوا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يعلم كثيراً مما يعلمون ويعملون كان هذا إساءة منهم لظنهم بالله عَزَّوَجَلَّ فأرداهم ذلك الظنُّ.

وهذا الأمر موجودٌ في كل من جحد شيئًا من صفات كمال الله عَزَّوَجَلَّ أو شيئًا من نعوته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنَّ هذا الظن يُردي صاحبه ويجعل فيه غروراً وخداعًا لنفسه بسبب تسويل الشيطان له، وليس ذلك من إحسان الظن.

من الأمور المهمة المتعلقة بحسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ: حُسْن الظن به سبحانه بالتفاؤل بالمستقبل والظنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ في مآلات الأمور وعواقبها خيراً، فإن المؤمن دائمًا محسنٌ الظن به سبحانه، فلا يُقدِم على أمرٍ من أمور الدنيا إلا ويظن بالله خيراً، فإذا مرض ظنَّ بالله شفاء المريض، وإذا افتقر ظنَّ بالله غناه، وإذا فقد الثوب وأصبح عاريًا ظنَّ بالله أنه هو الذي يُحسن إليه فيكسي العاري، وهو الذي يؤوي الضال، كما قال أبونا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في ثنائه على الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٧٨-٨٠].

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعجبه الفأل، قال بعض الصالحين: (استعمل في كل بلية تطرقك حُسْن الظن بالله في كشفها، فإن ذلك أقرب إلى الفرج)، فإن من أحسن الظن بالله وتفاءل بما سيكون من أفعال الله عَزَّوَجَلَّ في مستقبله ومآل حاله فإن ذلك هو المؤمن كمال الإيمان.

وإن أكثر ما يُشغِل الناس هو التفكير في مستقبلهم، فما أهمَّهم أمرٌ أكثر من تأمينه

والعمل على تحسينه، حتى غدا الخوف مما سيكون وما ستجرُّه الأيام معها وتلِده الليالي بقدومها ملازماً للبعض في تفكيره وحديثه وحال قيامه وقعوده في مجالسه كلها، حتى مع أهله وولده، فتراه يفكِّر في غدٍ لا يُعلم، ومستقبلٍ مجهول تراه يفترض فيه أسوأ الاحتمالات وأبعد التوقعات، يفكِّر في كل شيءٍ سيء، يفكِّر في غلاء المعيشة وما سيكون عليه الحال بعد سنوات، بل ربما تجده ينشغل بحال أبنائه بعده وما يدري ما سيكون عليه أمرهم، يفكر في طلاق بناته، وكيف أنهن سيتأيَّمن بعد أزواجهن وهُن بعْد لم يتزوجن، بل إني أعلم أن رجلاً يفكِّر في أبنائه وهو لم يتزوج بَعْد، يفكِّر ذلك المسكين في اليوم الذي سيدهمه فيه المرض فلا يقدر فيه على الحركة، يفكِّر في اليوم الذي يتوفى فيه رفاقه فيصبح وحيداً، تجده في أحايين كثيرة يتوهم جحود أبنائه له ويفكِّر في عقوقهم به حينما يحتاج إليهم، وكل هذا من ضعْف الإيمان وسوء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ.

وقد سمَّى الله عَزَّوَجَلَّ هذا الخوف من المستقبل جاهلية، يقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤] سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

-أيها الموفَّق-، إن انشغال المرء بما يكون عليه غَدُه وخوفه من شر الأيام وتقلبها يُكسبه ذلك الاعتقاد وسوء الظن بُعْداً عن الله وانشغالاً عنه ومشابهة لأهل الجاهلية، إذ من كانت هذه حاله فإن توكله على الله وثقته به وإيمانه بقضائه وقَدَره يضعف، وكمال يقينه بعلم الله عَزَّوَجَلَّ وإحاطته ينقص.

يقول ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إن الله عَزَّوَجَلَّ بقسطه وعدله جعل الرَّوح والفرح في الرضا

واليقين، وجعل الهمَّ والحَزَن في السَّخط»، الله أكبر! الرَّوح والفَرَح في الرضا واليقين، بحسن الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ، فمحسن الظن بالله إضافة لما وعده الله من خير فإن عنده الرَّوح والفرح بالدنيا، ومسيء الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ إضافة لما سيكون عليه يوم القيامة جعل الله في قلبه الهمَّ والحزن.

خوف المرء من مستقبله وما يكون عليه غَدُه هو من عمل الشيطان وكيده، لا لشيءٍ إلا ليفسد على المؤمن يومه، فلا يكون بيومه انتفع ولا بِغَده اقتنع، كما قيل.

جاء عند الترمذي وحسَّنه: أن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال - وروي مرفوعًا -: «**إن للشيطان بابن آدم لَمَّة ولِلْمَلَكِ بابن آدم لمَّة**»، ومعنى قوله: (لمَّة) **أي**: قُرْبٌ ودُنُو، فبيَّن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الشيطان أحيانًا يكون أقرب لابن آدم، وأحيانًا يكون المَلَك هو الذي أقرب إليه.

قال ابن مسعود: «**فأما لمَّة الشيطان**» في حال قربه من الآدمي «**فإيعادٌ بالشر، وتكذيبٌ بالحق، وأما لَمَّة المَلَك فإيعادٌ بالخير وتصديقٌ بالحق**»، فبيَّن ابن مسعود - وهو مرفوعٌ في بعض طرقه - أن الشيطان إذا كان في بعض اللحظات قريبًا من ابن آدم فإنه يَعِدُه الشر: ستفتقر، ستمرض، ستموت، سيعقُّك أبناؤك، سيكون وسيكون مما علمه عند الله عَزَّ وَجَلَّ، ويجعله يكذِّب بالحق الذي هو الإيمان بالقضاء والقَدَر، بل ربما زاد سوء ظنه بالله فكان من المنافقين.

قال: «**وأما لمَّة المَلَك فإيعادٌ بالخير، وتصديقٌ بالحق**»، إيعاد بالخير: يتفاءل ويحسن الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ، كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعجبه الفأل.

ثم قال ابن مسعود بعدما ذكر قال: «**فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى**» **أي**: هي لمَّة الشيطان وهو إيعاد الشر وتكذيب الحق، قال: «**ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان، ثم قرأ ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة:٢٦٨]».

فالشيطان - أيها الأخ الموفَّق - هو من يورث الهمَّ والغم، ويخوِّف من الفقر والمرض والموت، وهو الذي يؤيِّس من الغد ويقنِّط من الخير، وربما فكَّر بالسوء وكساد التجارة وبوارها وهي رابحة وأبناؤه حاضرون بين يديه.

إن الانشغال بهذا الأمر يشغِل على المرء قلبه وجوارحه ولا ينفعه في ذلك، ولا تعارض بينه وبين التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ وعمل الأسباب، فإن من مقتضى التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ: عمل الأسباب وبذلها، ولكن المصيبة عندما تكون هذه الأسباب والوسائل أمراً محرمًا، حتى إن بعض الناس في سَعْيه لتأمين مستقبله تحوَّل ذلك إلى هَوَس، جعله كالداء، فكم من امرئٍ استحل أمراً حرامًا ليكتسب مالاً محرَّمًا أو ينال ربحًا عاجلاً بحجة تأمينه مستقبله، فتجده يقع في ظلمٍ وسرقة أو بغيٍ أو غلولٍ أو غشٍّ أو نحو ذلك من المحرمات لأجل تأمين مستقبله.

كم من امرئٍ عطَّل بعض الشرائع الواجبة عليه من تَرْك صلاة، أو مَنْع زكاة، أو تأخير أداء حجٍّ، أو امتنع من بذل المعروف والصدقات بدعوى العمل بتأمين مستقبله وزيادة رزقه، والحقيقة أن هذا هو هَوَسٌ وقَلَقٌ واضطراب من خوف المرء من مستقبله، وليس ذلك من العقل والحكمة في شيء.

من رُزِق الحكمة لم يُشغِل باله بغَدِه ولا خافه وهابه، وإنما يَكِل أمره إلى الله عَزَّوَجَلَّ مع العمل الجاد والتوكل وعدم التواكل والعجز، فإن المؤمن متَّكِلٌ على الله في شأنه كله، يبرأ من الحول والقوة إلا بالله، يعلم أن ما كتبه الله له وعليه لن يستجلبه حرص حريص ولن يدفعه منْع مانع ولو اجتمع أهل الأرض جميعاً لذلك، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿**قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ**﴾ [الأعراف:١٨٨].

بل إن المؤمن يعلم في قرارة نفسه أنه لن يعمل شيئاً في مستقبله إلا بمشيئة الله وتوفيقه وإعانته جَلَّوَعَلَا، كما قال سبحانه: ﴿**وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ**﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

فالتفاؤل وحسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ مما أمر به الشرع وحثَّ عليه، كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لا طِيَرة ويعجبني الفأل الصالح الكلمة الحسنة**».

مما يساعد على ذلك: الكلمة الطيبة التي تشيع لدى الناس الفأل، ففي الصحيح أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**الفأل هو الكلمة الطيبة يسمعها أحدكم سوى الجزع**»، ولذا فإن عدم تقنيط الناس من الله وتيئيسهم من روحه هو من الدين ولا شك، بل قد أمر به الدين.

في الصحيح أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**من قال هلك الناس فهو أهْلَكَهم**» **أي:** بكلامه، ونطق بعض رواة هذا الحديث: «**فهو أهْلَكُهم**» أي: أشدُّهم هلاكاً.

فالهالك على لسان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو من أشاع بين عامة الناس السوء وخوَّفهم مما يكون علمه عند الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿**إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا**

يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ * إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٣٣-٣٤].

هذه الآية جمع الله عَزَّوَجَلَّ فيها بين الأمور الخمسة التي اختص الله عَزَّوَجَلَّ بعلمها، لم يُطْلِع عليها نبيـًا مرسلاً ولا ملكـًا مقرَّبـًا، وإيمان المؤمن بعلم الله عَزَّوَجَلَّ بها هذا من الإيمان بالغيب.

أختم حديثي - أيها الأفاضل - بأمرٍ مهم، وهو أن من علامات إحسان الظن بالله عَزَّوَجَلَّ وصِدْق ذلك الظن: أن يُرافق حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ عملٌ صالح، فإن من أحسن ظنَّه بربه فإنه يقبل على الطاعات بشوق ويَجِدُ فيها لذة.

وقد جاء عند الإمام أحمد وأبي داود من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**حُسْن الظن من حُسْن العبادة**».

وقال الحسن البصري: «إن المؤمن أحسن الظن بربِّه فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل»، وصَدَق! لا ريب أن حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ يكون مع حُسْن العمل وهو الإحسان، فالمُحْسِن حَسَن الظن بربه أنه سيجازيه على إحسانه، وأن الله لن يخلف وعده، وأنه سيتقبل توبته، وأنه سيستر عليه عيبه، أما المسيء المُصِرُّ على الظلم والمخالفة فإن وحشة المعصية والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه، المسيء مستوحشٌ بقدر إساءته.

كيف يكون محُسنـًا الظن بربه من هو شاردٌ عن الله عَزَّوَجَلَّ، حالٌّ منشغلٌ في سخطه

سبحانه وما يغضبه؟

كيف يكون محسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ من هان حقُّ ربه وعليه وأضاع أمر الله سبحانه، وهان نَهْي الله عَزَّوَجَلَّ عليه فارتكبه وأصر عليه؟

وهنا موقفٌ عظيم، جاء عمن هو من أعظم الناس إحسانًا بربه جَلَّوَعَلَا وهو محمدٌ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال أبو سهل: دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا فقالت: لو رأيتما رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مرضٍ له وكانت عنده ستة دراهم أو سبعة، فأمرني النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن فرِّقها، قالت: فشغلني وجَعُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتى عافاه الله، ثم سألني عنها: «**ما فعلتِ؟ أكنتِ فرَّقتِ الدراهم الستة؟**» قالت عائشة، فقلت: لا والله، لقد كان شغَلني وجعك. قالت: فدعا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهذه الدنانير فوضعها في كفِّه ثم قال: «**ما ظنُّ نبي الله لو لقي الله وهذه عنده**».

فبالله علينا وعليكم -أيها الأفاضل-، ما ظنُّ الظلمة بالله عَزَّوَجَلَّ إذا لقوه ومظالم العباد في رقابهم؟ فإن كان ينفعهم قولهم: حسَّنا ظنوننا بك يا رب فلو كان كذلك لكان لكل امرئٍ أن يفعل ما شاء وأن يرتكب ما شاء مما نهى الله عنه، فإن النار لا تمسُّه بدعواه حُسْن ظنِّه.

وقد بيَّن إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ أن دعوى حُسْن الظن بالله لا تنفع صاحبها ما لم يفرده بالعبادة ويتقرب إليه بالطاعة، كما قال إبراهيم لقومه: ﴿**أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ ۞ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الصافات:٨٦-٨٧]، **أي**: ما ظنُّكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ولذا فإن حُسْن الظن مع اتباع الهوى عجْزٌ كما جاء في المسند وغيره من حديث شداد

أن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الكِّيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**».

-أيها الإخوة-، هذا الحديث هو غيضٌ من فيض عن هذا الفعل العظيم من أفعال القلوب وهو حُسْن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ.

وإن المؤمن حَرِيٌّ أن يراجع قلبه بين الفَيْنة والأخرى في هذا الفعل العظيم وهو حُسْن الظن بالله، إذ هو شرطٌ للإيمان، وكماله من كمال الإيمان، وَفَقْدُه كذلك من فَقْد الإيمان.

فالمؤمن يراجع نفسه ويذكِّر إخوانه وينبههم لهذا الأمر العظيم، وخاصة إذا جاءت أوقات ربما كان الإيمان فيها يضعف، والخوف مما سيحل يزداد عند بعض الناس، ولكن المؤمن يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله عليه، رُفِعت الأقلام وجَفَّتِ الصحف، كل شيءٍ مكتوب في كتابٍ قبل خلْق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

فأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يرزقنا جميعاً الهدى والتقى،
وأن يصلح لنا أقوالنا وأعمالنا، وأن يُرِينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه،
والباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، وأسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يرفع البلاء عنا وعن سائر المسلمين، وأسأله جَلَّ وَعَلَا أن يحفظ بلادنا من كل سوء،
وأن يُصلح ولاة أمورنا ويحفظهم ويوفقهم لكل خير،
وأن يدلهم على الصالحين من الأقوال والأفعال،
وأسأله جَلَّ وَعَلَا أن يغفر لوالدينا وأن يرحمهما ويتجاوز عن خطيئتهما، وأن يجمعنا وإياهم ومشايخنا في جنات النعيم مع النبيين والصديقين.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا ورسولنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مُحاضرةٌ أُلقِيَت

يوم الثلاثاء الثَّامن والعشرون من شهر شعبان

سَنَةَ واحدٍ وأربعينَ بَعْدَ الأَرْبَعِمائَةِ وَالأَلْفِ

